مقدمة

"لا يمكن أن تنصلح أحوال الدول, ما لم يحكم الفلاسفة أو يتفلسف الحكام"

أفلاطون

تحيا الأمم وترقى منابر العزة والشرف على يد العلماء المبدعين من أبنائها المخلصين، فبهم تتصدر مواكب النجاح، وعلى عاتقهم تنهض وتزدهر. ويمثل علماء الأمة العربية وكفاءاتها جنة موعودة لأمة عظيمة، تستنزف أدمغتها، وتهدر كفاءاتها وطاقاتها– بقصد أحياناً، وبغير قصد في أحيانٍ أخرى– في شكل شلال هادر يُبدد أحلامها ويشكل "جنة مفقودة" لأمة في خطر.

وتُعد هجرة الكفاءات العربية واحدة من أهم المعوقات الرئيسة لعملية التنمية المستدامة لهذه الأمة، بكل أبعادها، العلمية والتكنولوجية، والمعرفية، والثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، ومن ثمَّ الأمنية. فالأمر جِدُّ خطير، إذ تُقدر خسائر الدول العربية بنحو (٢٠٠) مليار دولار سنوياً نتيجة هجرة أدمغتها، وذلك حسب تقديرات منظمة العمل العربية. وتتصدر مصر العربية الرائدة دائماً لأمتها عبر التاريخ، قائمة الدول العربية التي تعاني من آثار هذه الظاهرة، حيث يُقدر الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء في مصر عدد المصريين المتميزين من العقول والكفاءات التي هاجرت للخارج بـ(٨٢٤,٠٠٠) وفقاً لإحصاء عام ٢٠٠٣، من بينهم (٢٥٠٠) عالماً متميزاً. ولنا أن نتخيل أن مصر– فقط– قدمت نحو (٦٠٪) من العلماء والمهندسين العرب إلى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها، وأن مساهمة كلٌ من العراق ولبنان بلغت (١٠٪)، وكان نصيب كلاً من سوريا وفلسطين (٥٪)، لتبقى النسبة المتبقية من العدد موزعة على دول عربية أخرى.

وفي الوقت الذي تستقطب فيه الدول الغربية هذه الكفاءات والطاقات البشرية المنتجة والمبدعة، تتسع الهُوَّة العلمية والتكنولوجية والمعرفية, والثقافية, والاقتصادية, بل والعسكرية أيضاً، بين دولنا العربية من ناحية، والدول الغربية المتقدمة من ناحية أخرى. إن الخسارة في الكفاءات العربية وإهدارها تتحول إلى فوائد مباشرة ومثمرة لدول الغرب المتقدم الذي يقود العالم ويسوده، ليس بعقول الكفاءات من أبنائه فَحسْبْ، ولكن من خلال استثماره لعقول العالم وكفاءاته أيضاً، ومن بينهم العقول العربية التي يعمل على جذبها بشتى الطرق. ولنا أن نتصور عظم الأهمية التي تمثلها

العقول المهاجرة للدول المتقدمة المضيفة، فهذا "ديفيد هينان" David Heenan الكاتب الأمريكي والسياسي ورجل الاقتصاد يؤكد في مقاله "استيقظي أمريكا: وقائع تحذيرية عن الهجرة العكسية للعقول" على مدى أهمية العقول المهاجرة ومساهمتها في ريادة أمريكا للعالم وقدراتها التنافسية منقطعة النظير، فهو يحذر من عودة العقول المهاجرة إلى أوطانها، ويؤكد أن أمريكا ستفقد قدراتها التنافسية بسبب الهجرة العكسية للعقول ويقول:

"إن علينا أن ننسى الإرهاب، وأسلحة الدمار الشامل، فالحرب العالمية القادمة ستكون على رأس المال البشري وأن أمريكا ستخسرها بالتأكيد".

ويذهب الكاتب والصحفي الأمريكي "مايكل بوياجيان Michael Boyajian" إلي أبعد من ذلك في مقاله في مجلة "نيويورك بولتكس New York Politics" بتاريخ ٢٠١٠/٧/٨، حيث يري: **"أن الهجرة العكسية للعقول اللامعة من أمريكا ستهبط بها إلي مرتبة دول العالم الثالث, وستجعل منها عبد للأرصدة الأجنبية ونظم القروض والمعونات التي كانت تتقنها يوماً ما".**

أما الكاتب والصحفي الأمريكي "أديسون ويجن Addison Wiggin" فيؤكد في مقاله المنشور في ٢٠١٠/٣/١٥ تحت عنوان "نزيف الأدمغة الأمريكية" ما سبق أن أكده أستاذه "فيفك وادهوا Vivek Wadhwa" من خلال دراسة مسحية مع أربعة من زملائه من جامعات مختلفة... حيث يؤكد **"أن الولايات المتحدة الأمريكية تواجه لأول مرة في تاريخها تجربة نزيف الأدمغة...وأن رأس المال يذهب أينما تذهب العقول...وأن أمريكا لم تعد قبلة للأمل ولا أرضاً للفرص كما كانت من قبل".**

وفي كتابه "عصر العلم", يثمن العالم النوبلي المصري العربي الأفريقي الأمريكي المسلم الدكتور/ أحمد زويل, ما ذكره العالم الأمريكي "جيمس كونانت" في حديثه إلي صحيفة "نيويورك تايمز": **"أن هناك وسيلة واحدة ومؤكدة وثابتة لدعم ومساعدة تطوير العلوم, وهي اختيار الموهوبين من الرجال والنساء ودعمهم بقوة, وتركهم يديرون أنفسهم بأنفسهم دون وصاية خارجية".**

إن ظاهرة نزيف الأدمغة تُعد من أخطر الظواهر التي تؤرق رؤوس الحكم في الدول المتقدمة قبل النامية, ويرجع ذلك لوعيهم بالقيمة الحقيقية لهذه الأدمغة ومدي تأثيرها علي التنمية بكل أبعادها علي بلادهم المتقدمة. ولم يكن الرئيس الأمريكي الأسبق **"بيل كلنتون"** مخطئاً حين أكد في أحد لقاءاته الصحفية **أن أمريكا تقود**

العالم وتسوده ليس بالاعتماد علي أبنائها فحسب, ولكن من خلال العقول التي عملت علي جذبها, وتمني أن تظل أمريكا معملاً كبيراً لعقول العالم أجمع, كما أكد علي أنه سيعمل علي تحقيق ذلك حتى بعد تركه لمقعد الرئاسة.

أما الرئيس الأمريكي "جورج دبليو بوش الإبن"... ذلك الشيطان الأرعن...فلم يكن لديه من الحكمة ما يؤهله لاستثمار ما وفره له أسلافه من الرؤساء الأمريكيين من أدمغة لامعة جعلت من أمريكا القوة الأعظم Hyper Power... فقد استغل القدرات والطاقات العقلية الهائلة وإنجازاتها أسوأ استغلال بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١... خاصة تكنولوجيا الحرب المتقدمة التي سخرها في إبادة البشرية, حروباً هنا... وفتناً هناك... فراح يستنزف العقول والأجساد من أمتنا الغالية... كما كان ذلك الأرعن سبباً في تضييق الحريات وتهديد أمن الأفراد من الأمريكيين أنفسهم لتشهد أمريكا, ولعلها المرة الأولي في تاريخها, حالة من نزيف الأدمغة التي كان من بين أهم أسبابها: تهديد أمن الأدمغة اللامعة داخل أمريكا وخارجها, فكانت التصفية الجسدية والنزيف الدموي الحقيقي لكثير من علماء الدول التي قامت أمريكا وأعوانها بشن الحرب عليها وبالأخص دولة العراق الحبيبة.... وبصرف النظر عن أسباب تلك الحروب ومبرراتها الغير مقبولة في أي حال من الأحوال لدي أي إنسان علي المستوي الوطني والقومي والإقليمي والعالمي. ولم يتوقف الأمر فقط علي النزيف الدموي للعلماء من العرب والمسلمين, بل أدت مثل هذه السياسات الرعناء إلي نزيف بعض العقول الأمريكية ذاتها وهجرتها العكسية. كما عاد الكثير من العلماء إلي بلدانهم الأصلية, حيث الأمان والاستقرار والحريات والاقتصاديات الواعدة لبني تكنولوجيا عملاقة في دول مثل الهند والصين وتايوان وغيرها من الدول الناهضة والواعدة. هذا ما فعله الشيطان الأرعن "بوش الابن" فكانت هديته –أمام شاشات التلفاز وكاميرات العالم أجمع قبل رحيله وأثناء وداعه في العراق الحزين- حذاء المقدام "منتصر الزيدي" مقذوفاً في وجهه كنوع من المداعبة لخلقته وأخلاقه, لتغيب عنا ابتسامته البلهاء إلي غير رجعة. كما كان الشاعر الوطني الجميل "فاروق جويدة" علي موعد مع أجمل ما كتب في وداع الشيطان الأرعن في قصيدة رائعة منها:

"ارحـــل وعـــــارك في يديـــــــك فالأرض كل الأرض ساخطة عليك"

أما هذا الشاب الأفريقي الأمريكي الذكي الوسيم "باراك حسين أوباما", الذي أغبطه علي ذكائه وأحلامه القومية لبلاده وجرأة أمله وعمله لبلاده –وإن كنت

لا أتفق معه في كثير من الأمور, خاصة تلك الوعود المعسولة للعرب وللمسلمين في خطابه دونما تنفيذ فعلي أو حقيقي على أرض الواقع- فهو يحلم لشعبه ويطمح ويأمل ويحاول أن يوفر –قدر الإمكان- مناخاً سلمياً آمناً داخل بلاده وخارجها, وإن لم نلمس في الوطن العربي آثار توجهاته المعلنة حتى الآن. إلا أنه يوفر بيئة جاذبة, ولديه ذكاء وجداني رائع ومنقطع النظير, ولا أستطيع إخفاء إعجابي به في هذا الشأن –رغم تحفظاتي الكثيرة عليه في أمور أخري- فنراه علي سبيل المثال, ومثلما ورد في كتابه "جرأة الأمل", عند لقائه مع الأقليات المهاجرة في أمريكا يلتزم بقول عبارات ثلاث معهم مثل: **"أنا صديقكم"**, والبلد المعني **"كان مهداً للحضارات"**,و**"أنتم تجسدون الحلم الأمريكي"**, وهذه تمثل بذلك توجه جاذب للأدمغة المهاجرة إلي بلاده.

ومع ذلك، نستطيع القول بأن هجرة العقول ليست شراً في مجملها، ولم تمثل دائماً حجر عثرة ونقطة انتهاء مميتة لأي دولة من الدول، بل إن الأدوار القيادية والإدارية التي تلعبها الحكومات تمثل جهوداً محورية لتحويل هجرة العقول إلى مكاسب واستثمار لاكتساب العقول بشتى الطرق، مما ييسر دوران المعرفة وانتقال الخبرات من جميع أنحاء العالم. وبذلك، لا تعتبر هجرة العقول كوارث محضة، ولكنها تمثل واقع الاقتصاد القائم على المعرفة. ومن ثم، فإن على المسؤولين جعل البيئات المحلية جاذبة ومفيدة بشكل مباشر في تنمية دولهم. فالنظام العلمي والتكنولوجي المتقدم يعتبر مساهماً قوياً في النمو الاقتصادي، ويعتمد على الكفاءات العلمية والبحثية والتنموية التي تتميز بالإنتاجية والكفاءة. ويبدوا أن فقدان تلك الكفاءات وعدم استثمارها يعد تهديداً وفرصاً ضائعة لجنة واعدة يُصر البعض على ضياعها وحرق الشعوب بنار جهلهم وتجاهلهم لبزوغ نور فجر قادم لا محالة يبدد الظلام ويضئ الطريق والمسيرة إلى الأمام.

ولأن ظاهرة هجرة العقول من الظواهر الخطيرة والمعقدة، فإننا نحاول في هذا الكتاب أن نحث الحكماء والمخلصين من أمتنا، والقائمين على صناعة القرار فيها، على تعديل سياساتهم، والتفاوض مع الدول الأخرى على المستوى الدولي لاستثمار العقول العربية المهاجرة والإفادة منها، سواء كان ذلك من خلال التواصل مع روابط الكفاءات العربية في الخارج، أو من خلال تسهيل عودة الراغبين في الاستقرار في أوطانهم، وتوفير بيئة جاذبة لهم على المستوى العلمي والبحثي والمادي تظلها مظلة أمن واستقرار وحرية رأي وفكر وإبداع. وأقول لهم:***"إن الطير الذي يرغد في عيشه، ويأمن في عشه، ويحلق بحرية في سمائه ويأكل من طيب نمائه لا يترك أرضاً ولا يُفرط في عرضٍ، ويموت شهيداً في سبيل وطن شهد على عزته وكرامته وحريته"***.

ونسعى في هذا الكتاب للوقوف علي واقع ظاهرة نزيف الأدمغة العربية ومدي خطورتها, وحجم استثمارها في وطننا العربي بشكل عام, مع التركيز علي الظاهرة في كل من: مصر, والعراق, ولبنان, وفلسطين المحتلة.

وانطلاقاً من مبدأ **"اعرف عدوك, وإن جنحت للسلم معه"** نعرض الظاهرة في إسرائيل, ولسوف يندهش القارئ العربي وغير العربي حين يعلم أن إسرائيل, وهي الدولة القائمة أساساً على جمع الشتات تعاني الآن, ومنذ فترة من هجرة عقول عكسية خطيرة تُهدد مستقبلها وأمنها. وهذا ما سنتناوله بالتفصيل في الفصل السابع الخاص بهجرة العقول الإسرائيلية من خلال دراسات إسرائيلية وغير إسرائيلية.

ولما كانت هجرة العقول المتميزة ظاهرة عالمية، وليست مقصورة على العلماء العرب فقط، (فهناك هجرة للعقول المتميزة من الهند والصين، واليابان، وتايوان، وتايلاند، وكوريا الجنوبية، وبعض الدول الأفريقية مثل جنوب أفريقيا ...)، معظمها إلى الدول الصناعية الكبرى مثل أمريكا وبريطانيا، وفرنسا وألمانيا، وأسبانيا، وإيطاليا، والنمسا واليونان ... ، بل ومن بعض الدول الصناعية الكبرى ذاتها إلى بعضها الآخر ... فإننا سنحاول أن نقدم في هذا الكتاب بعض التجارب لبعض هذه الدول –مع التركيز علي كل من التجربتين الهندية والصينية- ومشاريعها لوقف نزيف أدمغتها واستثمارها والإفادة منها في عصر لا يوجد فيه مكان للضعفاء أو متسولوا الفكر والعلم.

كما أننا سنحاول تقديم بعض التوصيات والمقترحات لمواجهة ظاهرة هجرة العلماء ومحاولة الاستفادة منها من خلال بعض الرؤى والاستراتيجيات, خاصة إستراتيجية "الأيسيسكو" في هذا الشأن. وفي الختام نقدم ثلاثة نماذج لجنان مصر الواعدة علي أرضها الخالدة لعظماء مصر: لفارس العلم النبيل "د. أحمد زويل", والملك "د. فاروق الباز", وفارس الإنسانية "د. إبراهيم أبو العيش" وهي:

١- جنة زويل التكنولوجية علي الأراضي المصرية.
٢- جنة الباز: مصر الثانية علي ممر التعمير والتنمية.
٣- جنة أبو العيش: المدينة الفاضلة علي أرض مصر العامرة.

والآن أناشد المخلصين من حكام أمتنا العربية وحكمائها، وأقول لهم... "إن علماء أمتكم مصابيح هدي... تُضئ لكم الطريق... ومركبة حداثة وتقدم، تُسرع بكم للحاق بركب الإنسانية المتقدم... وترشدكم إلى ريادته –إن أردتم– كما كانت

أمتكم عبر تاريخها المجيد، حين أجلّ حكام الأمة علماءها وأنزلوهم منازل رفيعة ووزنت أفكارهم وإبداعاتهم بالذهب والماس... فهل لنا أن نستثمر في رأس مالنا الأغلى، في عقول أمتنا الفخمة، وأن نعمل على وقف شلال نزيف أدمغتها من محيطها الثائر إلى خليجها الهادر... بدلاً من الاستثمار في القصور الفخمة... والسيارات الفارهة... والرقيق الأبيض؟!!! فليس بالضرورة أن نمتلك قصوراً فخمة... أو سيارات فارهة... أو رقيقاً أبيضاً... ولكن بالضرورة أن نمتلك عقولاً فخمة للأخذ بيد أمة عظيمة إلى جنتها الموعودة... وها هي عقول أمتكم الفخمة... استثمروها ولا تضيعوها فتضيع جنتكم... ويضيع أمركم وشأنكم بين أمم تدعو في سلامها لصراع الحضارات وتنظر له وتعمل جاهدة على تحقيقه... فإن هانت عليكم أنفسكم هنتم بين الناس... فإن كان المولى عز وجل يكرم العلماء في قوله تعالى "إنما يخشى الله من عباده العلماء"، وقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: "العلماء ورثة الأنبياء"، فهل تكرمونهم؟!!! فما بين جرأة أمل باراك أوباما - وعمله لشعبه... وخيبة الأمل والعمل لدينا... تكمن القضية!! وأذكركم بأن إسرائيل –رغم معاناتها المريرة من هجرة أدمغتها- تغتنم فرصة هذه الظاهرة وتستثمر الهجرة عالية التأهيل الوافدة إليها من شتى أنحاء المعمورة، وتستفيد منها في إنفاذ إستراتيجياتها العليا كما أنها ترصد الميزانيات وتعد الخطط للعمل على جذب وإعادة عقولها المهاجرة بشتى الطرق.

في حب الوطن والأمة، وإخلاصاً للشرفاء من حكامها وحكماءها، أتقدم بهذا الجهد المتواضع في تقديم رؤية مستقبلية لاستثمار العقول العربية المهاجرة في ضوء بعض التجارب العالمية.

والله من وراء القصد ...

فتحي سرحان

٠٠٢-٠١٦٤٣١٤٣٧٣

F_Sarhan964@hotmail.com

F_Sarhan965@yahoo.com

obeikandl.com